نشوء العين

عاش الانسان قرونا عديدة لا يعرف غير حاجاته المادية ولا يشغله شيء غير التنازع على البقاء . عرف العمل قبل أن يعرف التفكير لأنه كان مضطراً إلى أن يلائم بيئته الطبيعية قبل أن تتوافر له القدرة أو أوقات الفراغ لكي يحاول فهمها

وعلى توالي الزمن ، ظهرت ملكة التفكير في الانسان وعمادها الذاكرة ، فساعدته على تقليد لغة أسلافه وصفاتهم العقلية . وهنا نشأت اللغة ، وأخذ الانسان يمتاز عن الحيوان

كانت اللغة هي البذرة في الثقافة التي هي النتاج الحي لتفاعل عقل مع آخر ، ومحصول الافكار والمشاعر ونواحي النشاط المشتركة بين العقلين . وبدون العمل لا تكون هناك ثقافة ولا تقدم في الذكاء . ولما انتشرت الثقافة زادت في تفوق الانسان على الحيوان حتى أصبحت ضمن التقاليد الاجتماعية التي اعتادها الانسان ببطء وثبات

توصل الانسان إلى المعرفة وأصبحت ضمن ضروراته التي يستعين بها على العيش ، لانه كان مضطراً الى معرفة المحيط الذي يعيش فيه حتى يجد ملجأ يأوي اليه من الوحوش ، وطعاما يمنع به جوعه . الا ان عقل الانسان كان في طفولته ، فلم يكن في استطاعته معرفة كل ما يحيط به . وفي سعيه الى سد هذا النقص توصل الي السحر . وبمقتضاه اعتقد الانسان ان لجميع قوى الطبيعة شخصية وارادة مثل ما عنده من الشخصية الخاصة أو الارادة الذاتية من حيث كونه عاملا شاعرا ولم يكن الانسان يدرك الفرق بين الكيان الحي وغير الحي فكل ما يتحرك أمامه حي وعلى ذلك فهو مريد . فالشمس التي تشرق وتقطع السماء وتغرب والريح التي تهب والرعد القاصف . كلها في عرفه شبيهة به في غدوه ورواحه ونومه وبطشه

ولما كان الانسان بحكم حاجته الى حفظ ذاته ونوعه مدفوعا الى استرضاء هذه القوى التي تتسلط على حياته فقد تملقها وعبدها وتودد اليها بمختلف الهدايا كما يتودد الى رئيس قبيلته وذوي النفوذ فيها

خيل اليه أن هناك هالة من الارواح تحيط به ، فاضطرب ، وتولاه الفزع ، وعمد الى السحر يستعين به على استخدام هذه القوي ، وتوهم أنه اذا قلد المطر في نزوله ، فالمطر لا محالة نازل ، وانه اذا جمع أفراد قبيلته وألبسهم أوراق الشجر ، اخضرت الارض . وذهب به الظن الى أبعد من هذا فتصور انه اذا أراد أن يؤذي أحدا يكرهه فعليه أن يعمد الى لباسه الذي كان يلبسه فيحرقه معتقدا انه اذا فعل ذلك أصاب عدوه ما أصاب الرداء

وبمرور الزمن تطورت الجماعات البشرية فبعد أن كانت تعتقد أن كل الارواح شريرة يجب التسيطر عليها من طريق السحر ، أخذ عامل الخوف يضعف شيئا فشيئا ويحل محله الخضوع والاحترام فحلت العبادة محل السحر ، وتطور الانسان فى هذه الادوار قائم على تطور فكرته عن الروح

ابتدأ الانسان ينظر الى الروح كشيء متعلق بالنفس يترك الجسد ثم يرجع اليه ، أو كشيء يفترق عنه ولكنه مع ذلك ضروري للانسان . وبعبارة أخري نظر الى الروح كعنصر غير عادي . وترجع هذه الفكرة الى رؤية شخصه فى أحلامه يعمل ويتحرك ، ورؤية الاشخاص الاخرين . واذا جرح أحد من أفراد القبيلة وذهب وعيه كان الانسان يخال ان روحه هجرت جسمه ، فكان يحاول أن يعيدها الى الجسم موجها صلواته ودعواته اليها ، راجيا اياها أن ترجع ، فلم يستطع التمييز بين غيابها الوقتي ورحيلها النهائي

كانت فكرة الموت فى الواقع غريبة عن عقلية الانسان وما زال هناك كثير من الهمجيين لايعرفون أن الموت شيء طبيعي وضروري ، بل بالعكس ينظرون اليه كحادث غريب غير طبيعي ناتج عن مؤامرة الأعداء أو عن السحر . كان الانسان يعتقد أن الميت قد ذهبت روحه أو نفسه أو أى شيء آخر ، ولكن ذلك قد يرجع ثانيا إلى جسمه فى أي وقت . لهذا اهتم الانسان بحفظ جثة الميت وذلك بتركه عند مايموت فى كوخه أو مغارته حيث يبقى مع الأحياء من أسرته . ولكن نظرا لتألم الأحياء لوجودهم قرب جثة الميت ، كانوا يضعون الجثة خلف الشجر أو فى مكان آخر تكون فيه بعيدة عن أى ضرر . وكانت نظرة الانسان الى الميت نظرة حب . فكان يقدم اليه الطعام ويعتنى به وخصوصا الهمجية . ويسمى هذا الدور بعبادة الجثة

ثم انتقل الانسان الى الدور الثانى وهو الدفن أو مايشابهه ، حيث ابتدأ يخشى الميت ويهاب عودة الجثة أو الروح ، ولكى يتلافى شوكتها توصل الى حفر مكان ثم وضعها فيه وغطاها بطبقة من التراب . وكان يضع أحيانا قطعة كبيرة من الحجر عليها للتأكد من عدم عودتها . ولظنه أن الميت يستمر حيا فى قبره كما كان يعيش على الأرض ، كان يزوده بالأسلحة والآلات والأطعمه وغيرها من الضروريات اللازمة لسكنه

لقد كانت الجثة تعيش فى الكوخ مع العائلة . ثم انتقلت الى المعيشة مع اجدادهـا بالقبر . ويسمى هذا الدور بعبادة الروح

وفى الدور الثالث حاول الانسان أن يبعد الروح بحيث لاتستطيع إقلاقه مطلقا ، فتوصل الى حرق الجثة ليمنعها من زيارة مساكن الأحياء . وفى هذا الدور أينعت فكرة الانسان عن خلود الروح . ولاشك فى أنها تمتاز عن فكرة البعث التى كانت نتيجة الدور الثانى . ويسمى الدور الثالث بعبادة الروح الحقيقية

رأينا مما تقدم أن الالهة كانت مجهولة . فلم يعبد ويقدس الأنسان حينذاك الا جثث أصدقائه وآبائه

وقد كان الله فى المبدأ روحا قوية مسالمة قادرة على المساعدة التى يرجى منها الكثير . ثم لما ارتقت الزعامة والملوكية ، كان لها تأثير عظيم على فكرة الألوهية . كان الملك يعتبر الها ذا أهمية عظيمة بعد أن يموت . وكانت قوة الآلهة تزداد وفقا لزيادة قوة الملك أو الزعيم ، كما أن الملك الأقدم والأكبر غموضا يعتبر أكثر قوة فى مرتبة الآلهة

وهكذا نمت الآلهة شيئا فشيئا وأخذت تتحرر من الأرواح بسرعة عظيمة . وكان هذا التطور الارتقائى ينمو وفقا لنمو المعابد والرياسات الدينيه . وعلى ذلك كانت الآلهة فى نظر الانسان خلال هذا التطور كشىء غير مادي ، أقرب الى الروحية منها الى البشرية فى شكلها وطبيعتها . ولهذا ميزها بصفات القوة وجسامة الحجم وكثيرا ماشبلت فى الشمس والقمر والقوى الطبيعية . ولكن قوة هذه الآلهة لم تصل الى تعلم القدرة فى دور تعدد الآلهة . لأن التعدد يحدد من سلطة كل منها

كان الدين ، ولا يزال يعتمد على عناصر ثلاثة — المعابد — والأصنام — والكهنة — ومن المحتمل أن القبر كان أول صورة للمعبد لأن الميت كان يترك فى الكوخ الذى يقطنه حيا ، حيث يقدم اليه مايحتاجه الحى وتؤدى له فروض العبادة . فاستلزمت هذه الاكواخ بعض العناية . فكانت تزخرف ، ومن ثم أخذت تعظم تدريجيا . وكلما عظم المعبود زاد الانسان من الفن والمهارة فى بناء وزخرفة مسكنه ، حتى أصبحت عظمة المعبد تتوقف على عظمة الاله

أما الاوثان الأولى فلم تكن صورة للميت ، ولكنها كانت الجسم نفسه يحفظ أو يحنط . ثم أصبحت صورة تمثل الاله

وعندما نمت فكرة الألوهية ، وأعتاد الانسان النظر الى الوثن باعتباره ممثلا للاله ، كان من السهل الاكثار من هذه الاوثان فازداد الالتباس بين الآله وصورته ، أيهما الحقيقى وأيهما الصنو

بعد أن كان الحجر يوضع على القبر ليعوق الجثة عن القيام ، أصبح يمثل الجثة نفسها . وبعبارة أخرى يمثل الروح أو الاله . ثم أخذ الانسان يغير من وضع شكل الحجر حتى أصبح وثنا تقدم له الصلاة . ولما رسخت فكرة قدسية هذه الاحجار بعقلية الانسان . كان من الطبيعى تقديس الاحجار المشابهة للاحجار الاصلية باعتبار أنها مسكونة بروح أو اله ، ثم أتى على الانسان حين غمض عليه التميز بين الحجر والروح ، والسلف والاله . وهكذا أصبح الحجر والروح متصلين ببعضهما . حتى أصبحت العطايا تقدم للحجر نفسه ولذلك عند ما استعمل الحجر المسطح للتضحية بالقربان لم يشعر المتعبدون أنفسهم بهذا الانتقال

والكهنة هم العنصر الثالث فى الدين الذى زاد من أهمية وقوة الآلهة . لان الكهنة هم الطبقة التى ينحصر عملها فى تعظيم واجلال الآلهة المعبودة

وللكهنوت أصلان . الاول له صفة الملكية Quazi—Royal والثانى له صفة الخدمة Quasi—Service

يرجع الاصل الاول للكهنوت الى اعتبار رئيس القبيلة كأبن أو ممثل للروح اله القبيلة . له وحده الحق فى الاقتراب من الاله وتقديم العطايا . فاذا أراد فرد شيئا من الاله فلا بد لذلك من وساطة رئيس القبيلة ، لان الاخير قريب وصديق الروح المقدسة فهو يعرف أفكارها وعاداتها . ومن هنا كان هؤلاء الرؤساء كهنة بطبيعتهم . فهم مقدسون بحكم الوراثة ، لان هناك علاقة خاصة تربطهم وأولادهم بالهة القبيلة . فدماؤهم من دماء الآلهة

يستدل مما مضى على أن آلهة الجماعات الصغيرة أو الاسر فى أول أشكال الدين هى أسلافها الميتة . ويقوم رب العائلة بمهمة الكاهن ، يقترب من أرواح الاسرة أو آلهتها بالنيابة عن زوجاته وأولاده وأتباعه . ولما ارتقت القبيلة قويت مهمة الرياسة وأصبحت أرواح أو أسلاف الاسرة الملكة آلهة يمثلها الرئيس الموجود وأقاربه . ومن ذلك اتصلت السلطة الكهنوتية فى أغلب الاحوال بسلطة الملك أو الزعيم

ومن التقاليد التى رسخت على توالى الزمن ، عدم منح الزعيم أو الملك سلطة الحكم الا باحتفال يمثل فكرة الخلق كما تعتقدها الجماعة . فالملك أو الزعيم ينتسب للآلهة ولذلك يمنحه الشعب قوة الخلق لانها تعتبر ضرورية فى تأدية واجباته الملكية ، وفى الاحتفال المقدس يمثل الرئيس دور الخالق ، وذلك بممارسة عدة طقوس سحرية يخلق بها الطعام للرعية فى شكل نباتات أو حيوانات ، والقيام بعدة أعمال من شأنها حفظ المحاصيل والاغنام

وكان للنوع الثانى من الكهنوت صفة الخدمة Quari— Service ويرجع أصله فى أنه لما كانت العشيرة مضطرة لتقديم العطايا للأموات عينت الكهنة أو الخدم ليتحققوا من العطايا المقدسة . وهنا كان الاغنياء يقفون للقبر عينا لحفظ العطايا ولامداد الكاهن بمعاش او مرتب . وكان هذا النوع الكهنوتى وراثيا لضمان استمرار نظامه . ولذا كثيرا ما استمرت العبادة التى تؤدى بالقبر مئات السنين

وعلى توالى الزمن ظهرت الاحكام ، ونمت العادات والطقوس وأصبح الكهنة حفظة التقاليد المقدسة ، يعرفون وحدهم كيف يقتربون من الآلهة وفى امكانهم معرفه ما تخبىء الآلهة من سرور وحزن ! فبدونهم لا يستطيع عابد أن يقترب من الآلهة ولذا أصبحت لهم أهمية فاقت غرض وجودهم

كان الانسان يرى أنه ليس هناك آلهة غير جثث أسلافه وأرواحهم ، ولم يكن الدين غير القيام بعدة طقوس وتقديم بعض العطايا لهذه الجثث أو الارواح . ثم احتاج الى عناصر عظيمة وآلهة مختلفه ، وأهم هذه الآلهة رب الزراعة

كانت فكرة دفن الميت ترمى الى حبس روحه أو جثته وذلك بغمرها بالأتربة ، ولكن لم يكن ذلك كافيا ليجعله على يقين من عدم ظهورها ، فكان يضع غالبا على القبر أو الأكمة حجراً ثقيلا . ومن عملية الدفن هذه بدأ حرث الارض ، وتعريض الارض السفلى للهواء . واستئصال النباتات غير الصالحة . وكل هذه المقدمات الاولى الضرورية للزراعة كانت عرضية . ولما كان من عادة الانسان تقديم الاطعمة والاشربة لموتاه بوضعها على القبور وكانت من نفس مايتناوله الأحياء أي لحوم الحيوانات والطيور المقتنصة ، والاسماك والفواكه والحبوب الناضجة كالفول والحنطة . الى هنا كان الانسان يزرع البذور بدون علم منه على أرض محروثة جديدة خالية من النباتات غير الصالحة ، ومسمدة بدماء لحوم الذبائح المقدمة ومن شأن هذه البذور سرعة النمو والنضوج فى أقل زمن ممكن مما استرعى انتباه الانسان . وبما أنه لايعرف شيئا عن البذور والسماد أو طبيعة الارض فقد استنتج بحسب ماتراءى له أن الروح المخيفة القوية المقبورة سرت بما قدم لها من لحم وحبوب فردت هذه العطايا من نفس نوعها ، فضاعفت مقدار الحبوب مئات المرات . لاشك أن الانسان كان مبتهجا تحت مثل هذه الظروف بقطف واكل الحبوب التى نمت بالمصادفة على قبور موتاه . وعلى توالى الزمن وصل إلى توسيع نطاق الزراعة . وكانت الخطوة الاولى نحو هذا التطور ناتجة عن ملاحظة فلاح البذور والحبوب فى القبور الحديثة لاعلى جميع القبور . وكان يلوح له أنه حالما ينضج النبات الطبيعى تفنى قوة الروح . لذا وجد من المستحسن الاعتماد على الارواح الجديدة دائما للاغراض الزراعية وربما نشأ عن ذلك عادة إنشاء قبر جديد سنويا فى أكثر الاوقات الملائمة للزراعة . ولم يكن هذا القبر الجديد لشخص مات فى ذلك الوقت بالمصادفة ، بل لضحية مقصودة ذبحت لتمد الانسان بروح الزراعة « آلهة صناعية » ، ولكى تجعل الحنطة تنمو بسرعة وبمقدار عظيم . ثم توصل الانسان الى أنه اذا زاد فى حفر مساحة الارض فان الحبوب تنمو حول قبر الضحية المقدسة كما تنمو عليه . وعلى ذلك اتسع الحقل المزروع وزادت عملية الحرث التى يقوم بها الانسان الى اتساع الارض المحروثة فاصبحت قبرا من الوجهة النظرية وحقلا من الوجهة العملية

كانت الضحية فى الاصل ملكا أو رئيسا مقدساً أو ابنا أو ابنة ملك أي أحد أفراد السلالة المقدسة التى تجرى فى عروقها دماء الآلهة أو الملوك . ثم اقتصرت على أحد الافراد فاختص بالعناية وعومل كما تعامل الآلهة أو الملوك ثم استبدل بالشخص حيوان (Theanthropic)

عند ما ابتدأ الانسان يقدس بعض الحيوانات ظهر نظام الطوطمية . ويتكون هذا النظام من مجموعة طقوس تسمى الطبو . تمارسها الجماعة لأن أفرادها يعتبرون أنفسهم أقارب بعضهم لبعض . ويعتقدون أنهم من سلالة الطوطم الذى يعتنقونه فهو مصدر هذه القرابة وهو غالبا حيوان أو نبات . تجعل له الجماعة رمزا واسماً عامين . فان كان الطوطم ذئبا فان كل أفراد العشيرة يعتقدون أنهم من أصل ذئب وعلى ذلك ففيهم بعض خواص الذئب

يعتبر الطوطم إله القبيلة أى موجدها وحاميها ، فهو مبدأ الجماعة الوحيد وقوة ارتباطها الدائمة وروحها العظيمة . وهو القوة الاجتماعية الموروثة فى الجماعة ولذلك فان النظام الطوطمى ساعد الانسان الفطرى على أن يعيش فى جماعات منظمة يندر فيها القتل والسرقة ، بعيدة عن الفوضى والفساد . واعتمدت الأسرة الاولى على الصلات الطوطمية التى منعت الزواج الداخلى وأباحت الزواج الخارجى وبالتالى حددت الصلات الجنسية للافراد بعضهم ببعض

وكذلك اعتمدت القوانين الفطرية على النظام الطوطمى فكان القاتل يعد نجسا يحرم على سائر أفراد القبيلة النظر اليه ، كما كانت أثمن الممتلكات تترك تحت حماية طقوس الطبو عند غياب صاحبها . فاذا رغب إنسان فى حفظ ملابسه أو منزله أو طعامه فما عليه إلا أن يجرى طقوس الطبو عليها وبذلك تصبح فى أمان

كان تأثير الطوطمية عظيما فى تقوية الروابط الاجتماعية وبعبارة أخرى فى خدمة المدنية وتقدمها ، فهو أصل التعاون بين أفراد الجماعة والدافع على تضحيتهم بالمنفعة الشخصية فى سبيل منفعة الجميع ، والافراد الخاضعون لطوطم واحد يعتبرون أنفسهم أقارب مستعدين لخدمة بعضهم بعضا حين الحاجة . والصلة الطوطمية أقوى من الصلة الدموية . لأن الاولى أوجدت الشعور بالتضامن الاجتماعى وبالمسئولية المشتركة فكل فرد مسئول حتى إذا احتاج الامر للتضحية بحياته للانتقام إذا أصيب بقية الأفراد بضرر ، كأن هذا الضرر وقع عليه

فى الواقع أنه كان لنظام الطوطمية شأن عظيم فى تطور الجماعات ، فقد أوجد آراء حقوق الملكية وقدسية الحياة البشرية وعقدة الزواج

ظل النظام الطوطمى شائعا عند ما كان الانسان يعيش بالصيد والرعى ، فلما عرف الزراعة والتدجين اقتضى ذلك إقامة الانسان بمكان واحد لا يتحول عنه فساعد ذلك على اختفاء الروابط الطوطمية وانتقال القبيلة إلى نظام التوطن ، فأصبحت مرتبطة بقطعة من الارض ، فحلت الرابطة السياسية محل الرابطة الدينية ، إلا أن الزراعة أوجدت الثروة الثابتة ، وهذه ساعدت على وجود هيئة اجتماعية منظمة تتولى إدارة هذه الثروة . ومن ثم وجد رئيس يجمع بين الوظيفة الدينية والسياسية ووجد نظام للكهنة وأوقاف للمعابد وصار الدين عقائد ثابتة لا تتغير